ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X
مجلة أبعاد
مجلد 07 (عدد 02) – 31 ديسمبر 2020

حول الهوية: قراءة سوسيو-سياسية لمفهوم الهوية والانتماء

Around identity: a socio-political reading

د زروقي سعيدون* [1]
zsaidoun31@gmail.com
[1] كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 2. أحمد بن محمد– الجزائر.

****

تاريخ الإرسال: 2020/05/16 | تاريخ القبول: 2020/09/12 | تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص:
نسعى من خلال هذه القراءة إلى الإسهام في وضع تعريف لمفهوم الهوية من المنظور السوسيو-سياسي حيث تتفق العديد من التخصصات العلمية على أن مفهوم الهوية لا يخرج عن نطاق كونها ذلك التعريف أو التمييز أو بالأحرى ذلك التحديد للفرد أو للجماعة ضمن حدود جغرافية وزمنية معينة، كذلك تعرف الهوية من خلال تكون شخصية الفرد ضمن مسار التنشئة الاجتماعية حيث يكتسب مجموعة من المقومات الثقافية والدينية والسياسية وغيرها ليتسنى له تحديد انتمائه ضمن المجتمع الذي يعيش فيه. في هذا السياق أضحى مفهوم الهوية غامضا في السنوات الأخيرة بالنظر الى التحولات التي طرأت على تركيبة المجتمعات ضمن نظام العولمة لاسيما إثر حركات الهجرة المتتالية منذ الحرب العالمية الثانية انطلاقا من دول الجنوب نحو دول أوربا وأمريكا حيث نتج عن ذلك ظهور أجيال جديدة اكتسبت جنسيات تلك الدول التي استقبلت آبائهم إضافة إلى جنسياتهم الأصلية، لذلك عاد التساؤل مجددا عن الهوية والانتماء والمواطنة في تلك المجتمعات الغربية.
الكلمات المفتاحية: الهوية؛ الانتماء الديني؛ المواطنة؛ الفرد؛ الهجرة؛ فرنسا.

Abstract :
Through this reading, we seek to contribute to the definition of the concept of identity from a socio-political perspective, where many scientific disciplines agree that the concept of identity does not go beyond the scope of being that definition or discrimination or rather that identification of the individual or the group within certain geographical and time limits. Identity is also defined through the individual's personality being within the path of socialization, where he acquires a set of cultural, religious, political and other elements so that he can determine his belonging within the society in which he lives. In this context, the

* المؤلف المرسل

concept of identity has become mysterious in recent years, given the changes that have occurred in the composition of societies within the globalization system.Especially in the aftermath of successive immigration movements since the Second World War, starting from the countries of the South towards the countries of Europe and America, as a result of which the emergence of new generations that have acquired the nationalities of those countries that received their parents in addition to their original nationalities. That is why the question again about identity, belonging and citizenship in those Western societies.

Key words: Identity; Religious Affiliation; citizenship; Individual; Immigration; France.

مقدمة:

تعدُّ الهوية من بين المفاهيم الشائكة من ناحية التحديد، حيث سعى الكثير من الفلاسفة والمفكرين إلى وضع تعريف لها، انطلاقا من توجههم الفكري والأيديولوجي. إلا أن تعريفها زاد توسعا وغموضا حديثا مع التطورات والمتغيرات الجديدة في ضل نظام العولمة وتقلص الحدود الجغرافية وفق سياسات التنقل الحر (la libre circulation)وكذا المتغيرات الحاصلة جراء حركات الهجرة من دول الجنوب، حيث نتج عن ذلك تشكل مجتمعات جديدة من أجيال المهاجرين الشيء الذي أحدث هزة في تركيبة المجتمعات المضيفة (les sociétés d'accueil). ومن بين نتائج تلك التحولات ظهور أجيال جديدة من أبناء المهاجرين تحمل أكثر من جنسية واحدة، جنسية البلد الأصلي وجنسية البلد الذي ولدوا ونشأوا فيه. وهنا بدأ الحديث عمن هو المواطن الحقيقي خصوصا في فرنسا، لاسيما من قبل بعض الأطراف الإعلامية والسياسية ذات التوجه المعادي للمهاجرين. على كل أضحت الهوية خصوصا في الغرب تطرح عدة تساؤلات من أجل إيجاد تحديد يتماشى والواقع الحالي. نحاول في هذا المقال أن نعرج على بعض الاسهامات في هذا الصدد بغية تلخيص ما قيل وكتب حول مفهوم الهوية من منظور سوسيو-سياسي، حيث نحاول الإجابة على التساؤل التالي: ماهي حدود الهوية من خلال النظرة السوسيو-سياسية؟

حول الهوية: قراءة سوسيو-سياسية لمفهوم الهوية والانتماء

لا تمثل الهوية مصطلحا سوسيولوجيا إنما أكثر من ذلك موضوع دراسة، إنها مجموع التحولات الاجتماعية المثقلة غالبا بمصطلح أو كلمة حداثة، حيث يميل السؤال نحو الانتقال الوراثي من مكان محدد في المجتمع وبالتالي خلق مجال كبير من عدم اليقين. بالنسبة للتحديد الاجتماعي، ثمة اهتمام متفق عليه خصوصا من طرف اتجاهات مختلفة من علم الاجتماع الأمريكي داخل مسارات من خلالها يبني الأفراد شخصيتهم بحيث تعطى لهم نوع من الوحدة والتعريف والمعنى على الرغم من مختلف التجارب التي عاشوها[1].

من جهة أخرى فإن الهوية "تشكل جزءا مهما للحياة الاجتماعية، وهي تتشكل فقط عبر التمييز بين هويات مختلف الجماعات والتي يمكن ربطها بأناس آخرين. والاطلاع على مختلف الهويات يعطي إشارة عن نوع الفرد الذي تتعامل معه ومن ثمة كيفية الارتباط به"[2].

ثمة عناصر أساسية مكونة لفرد أو جماعة اجتماعية أو مجتمع ما، من بينها العناصر المادية كالسكن، الأموال واللباس، الانتماء الاجتماعي إلى غير ذلك. العناصر التاريخية، كالأصول التاريخية مثل القرابة والأساطير المؤسسة والخرافات والتقاليد، أهم الأحداث التاريخية، أساليب التنشئة الاجتماعية والتربية إضافة إلى عناصر ثقافية نفسية على غرار العقائد، الديانات والرموز الثقافية والنظم والقيم الثقافية (فنون، أدب) وغير ذلك. وأخيرا العناصر النفسية والاجتماعية كالأعمار والجنس والأدوار الاجتماعية، قيم الكفاءة والتقديرات المختلفة وأنماط السلوك...إلى غير ذلك[3].

إن مختلف المحاولات الماكرو-سوسيولوجية على مستوى الشعوب والأمم ظلت سجينة إشكالية التفاوت التاريخي والاجتماعي، إشكالية النمو والتخلف، بحيث لم يبقى أمام الشعوب والأمم التي شعرت بهذا التفاوت سوى الركون إلى حتمية الهوية الخالصة كملاذ للهروب من "نعوت مختلفة" لذلك أضحى المرجع الميتافيزيقي الديني للهوية عنصر

---

[1] P. Riutort, *précis de sociologie*, Ed PUF. Parsi 2004. P 253.

[2] هارلبس وهولبورن، سوسيولوجية الثقافة والهوية. ترجمة: حاتم حميد محسن. دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع. ط 1. دمشق 2010. ص 93.

[3] A. MUCCHIELLI, *L'identité*, Ed. PUF Paris 1999. P 41/42.

مناعة ضد التصدع والتمزق[1]. يظهر ذلك جليا لدى الكثير من الشباب الفرنسيين المنحدرين من أصول جزائرية أي مزدوجي الجنسية حين يفضلون نعتهم بالمسلمين (nous sommes musulmans)بدلا من الفرنسيين أو الجزائريين.

إن المشكلة في الهوية عموما تكمن في تحول هذه الهوية إلى جوهر ميتافيزيقي، أبدي قبلي، أي تتحول إلى معطى مسبق وإلى تراث محتوم لا حول عنه يأتينا من الماضي من دون أن يؤثر فيه أي تطور أو تقدم زمني، فالهوية تحتاج إلى صياغة وتشكيل وتنمية وذلك عبر التفاعل مع المعطيات الاجتماعية والسياسية والثقافية والجغرافية..."[2]

إن الحديث عن الهوية في فرنسا مثلا يقودنا للحديث عن الهوية الفرنسية، بصيغة أخرى، هل لفرنسا هوية ثابتة موحدة ومستقرة؟ في هذا السياق يذهب الكثير من الباحثين والمفكرين على غرار Michelet إلى أن فرنسا ليست كألمانيا وبالتالي ليست سلالة، إنما هي أمة أصلها مزيج، يستمد الفرد مجده من مشاركته الطوعية في الجماعة، وعليه فإن فرنسا قد تشكلت من مجموعات متعددة، إنها عبارة عن تجمع ضمنه يظهر كل فرد مكانته ومشاركته في بناء ومجد هذا الكيان. وفي هذا الصدد يتكلم Michelet عن الهوية الوطنية لفرنسا قائلا بأن أغلب الفرنسيين أصولهم سلتية* Celte.

أما على الصعيد السوسيو-ثقافي والسياسي لاسيما فيما يتعلق بحضور جماعات أجنبية على التراب الفرنسي، فقد بدأ الكلام عن الهوية حوالي بداية التسعينيات من طرف خصوصا أتباع أحزاب اليمين، من جهة بسبب إدراك معنى مدى تعقيد المسألة ومن جهة ثانيةفإن بعض الأفراد من المجتمع أضحت هويتهم مهددة أو في خطر.

من ناحية أخرى فبمجرد التفكير في الهوية أمر مستصعب، إنه يقودنا للسؤال حول المعرفة والاعتراف وبذلك فهي علاقة جدلية بين "نفس الشيء" و"الآخر" إنها استراتيجية

---

[1] الحمار العلمي، في الهوية والسلطة، دراسات وأبحاث في الفكر والمجتمع والسياسة. مرجع سبق ذكره. ص 11/10.

[2] عهد كمال شلغين، الهوية العربية، صراع فكري وأزمة واقع. دراسة في الفكر العربي المعاصر. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. دمشق. 2010. ص 62.

*سالت: إسم لمجموعة من الشعوب الهند-أوربية القادمة من ألمانيا ظهرت في الألفية الثانية في أوربا الوسطى حيث استقروا في منطقة من أوربا الغربية والتي كانت تضم فرنسا، لوكسمبورغ، بلجيكا والجزء الأكبر من سويسرا، بريطانيا، إسبانيا، شمال إيطاليا منطقة البلقان ومنطقة آسيا الصغرى.أنظر:

Robert, rédaction gle Alain Ray. Paris 1977. P 363Le petit Robert 2, S/direction de Paul

الفرد ضمن الجماعة إنها ذلك التصادم والمفاوضة التي تحدث بين الفرد والجماعة، بين الماضي والمستقبل، بين الأصلي والمختلف.

إن الكلام عن الهوية ليس بالأمر الهين، إنها ممارسة قراءة أو بالأحرى إعادة القراءة للأنا في علاقته بالأنا نفسه وكذلك في علاقة هذا الأنا مع الآخر. إذن هي محاولة الحفاظ على التوازن بين التشابه والاختلاف، الوحدة والتنوع، يحدث هذا ضمن تفاعلات وردود أفعال داخل المجتمع، ضمن كذلك الحراك، الأفعال والتغيرات، الاستمراريات والديناميكيات الحاصلة في المجتمع.

كما تدرج الهوية ضمنها كل ما يتعلق بالعاطفة والمعرفة وكذا كل ما يمت بصلة للتمثلات من أحاسيس واستراتيجيات، كما تدرج الحالي والمستقبلي، الاستمراريات والتطلعات... وغير ذلك.

إن الهوية هي المرور من شكل تعريف وتحديد معين إلى شكل آخر، إنها التحول وإعادة البناء، هي كذلك الثقافة التي من شأنها وضع الهوية ضمن حقل جمعي عام... ولكن يبقى السؤال مطروحا: ما الهوية؟ الشيء الذي يذكرنا بالسؤال الذي طرح على الفيلسوف ميشيل فوكو، ما الحداثة؟ حينها أجاب قائلا: لست أدري أو لا أعلم، "لم يطرح نقاد الحداثة مسألة الحداثة المغايرة أصلا ولا فكروا بها، ذلك بأن الحداثة المغايرة هي منزع غير نقدي تماما، وهو ما يعني اليوم أن مسألة نقد الحداثة هو نفسه موقف نظري لا يخلوا من هشاشة منهجه"[1] حيث أن وضع مفهوم نظري لمسألة معينة شيء وإدراكها في الواقع شيء آخر، كما أن تحديدها وتحريفها يتباين من بيئة لأخرى أي من واقع لآخر. لذلك فإن الهوية نظريا شيء وفي الواقع شيء آخر.

إن الحوليات المختصة في الهوية تكاد تجمع على استحالة وضع مفهوم محدد للهوية أو الإجابة عن السؤال التالي: ما الهوية؟ كما أن عدم وضع تعريف أو صياغة إجابة محددة لهذا السؤال في حد ذاته إنما هي إجابة ذكية.

لا يمكن الاكتفاء بالبعد الفلسفي، والسيكولوجي من أجل وضع تحديد للهوية لدى الفرد، بل لا يمكن بأي حال من الأحوال فصل هوية الفرد عن غيره، أي لا يمكن الفصل بين الذات والآخر. وعليه فإنه توجد علاقة شائكة بين الهوية والغيرية وبين

[1] فتحي المسكيني. الهوية والحرية، نحو أنوار جديدة. جداول للنشر والتوزيع. ط 1. بيروت-لبنان. 2011. ص 212.

الذات والآخر. وبطريقة أو بأخرى، ينتج عن ذلك علاقة منتظمة من الوظائف ضمن أطر رسمية إما بالتطابق أو بالاختلاف في سياق ما يسمى بالسلطة. والسلطة في هذا الصدد تحدد بمدى القدرة على تنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات وكذا توفير حاجياتهم من جهة وتأسيس هيئات من شأنها تأمين انتظام بنياتها وبالتالي تحقيق مجتمع متماسك.

"إن الهوية في هذا الحقل المزدوج للسلطة هي بالأساس حقل ثقافي بما أنها نتيجة مسار توحيدي لعلامة وذات (الإسم واللقب المسندين إلى فرد والحالة المدنية وأرقام الهوية والضمان الاجتماعي والبنوك والقروض والهوية السياسية وبصمات الأصابع إلخ...)"[1]. من ناحية أخرى، فإن الهوية السياسية "تبحث عن عناصر ارتكاز لها في الهوية الثقافية. ليس لأن الهوية الثقافية هي المعبر عن مصالح الجماعة ولكن لأن الهوية الثقافية لها دور أساسي في الصراع الغير متكافئ على السيطرة والهيمنة في العالم ويمكن القول بأن الهوية السياسية تعد الدافع والغرض لهوية متحركة المقاصد قادرة على التجدد بشكل أسرع من الهوية الثقافية وهي أبنة أوضاع داخلية وعالمية أكثر منها أبنة ذاكرة جماعية وفردية ضرورية الاستحضار من هنا شكلت أشكال الانتماء السياسي الترجمة الأكثر صدقا لمعطيات العصر، مهما كانت المرجعية الثقافية والرمزية لها"[2].

إن مختلف الصراعات والتوافقات ذات الطابع السياسي الحاصلة في أوساط الجماعات والأفراد تكوّن الهوية لديهم. "إن عقلانية الهوية على المستوى السياسي تتوزع إلى مقتضيين إثنين في علاقتهما بالحداثة:

-الهوية بما هي مسار للفرد في دواليب السلطة.

-الهوية بما هي شكل تذييتي وبما هي تكوين للذات وانهمام لها استعرنا عبارة عزيزة على ميشال فوكو. يؤكد هذا الأخير أنه: "لم نجد قط في تاريخ المجتمعات الإنسانية داخل البيانات السياسية نفسها تنسيقا أكثر تعقيدا لتقنيات التفرد وللإجراءات التشميلية"[3].

---

[1] المرجع نفسه. ص. 46.

[2] عبيد بسيوني رضوان، أزمة الهوية والثورة على الدولة في غياب المواطنة وبروز الطائفية. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. ط 1. القاهرة 2012. ص 92.

[3] المرجع نفسه. ص. 47.

على العموم فإن هوية الفرد السياسية تندرج ضمن علاقته بأجهزة الدولة. أضحت العلاقات الفردية والجماعية متداخلة كثيرا بل متشابكة مقارنة بالماضي. وبذلك يكثر الحديث في الوقت الراهن عن الهويات الجماعية وليس الهويات الفردية، فماعدا الأمور الخاصة التي ذكرناها سابقا من إسم ولقب وغير ذلك فإن هوية الفرد تذوب في هوية الجماعة التي ينتمي إليها. ومن جهة أخرى تسعى السلطة في الدولة الحديثة إلى تعرية أسرار الأفراد وذلك بالتجسس حتى على حياتهم الحميمية. حيث أدركت هذه السلطة فيما يخص الهوية أن السرّ يشكل سلاحا لدى الفرد يلجأ إليه دفاعا عن نفسه، ينطبق ذلك على أبناء المهاجرين في فرنسا وكذا المهاجرين في أمريكا وأستراليا، "حيث أن تلك الجماعات لا تطلب حقوقا مدنية واقتصادية وسياسية فحسب، ولكن تطلب أيضا احتراما مساويا وشرعية واعترافا بهوياتها المهمشة"[1]

تسعى السلطة إلى إرغام الأفراد على تسليم هويتهم الخاصة وحميميتهم لها، وهي من تتولى تنظيم وتسيير حياتهم، طرق تفكيرهم، رغباتهم وميولهم وغير ذلك. إنه تجريد لأسرار الأفراد وهويتهم الخاصة. وفي هذا السياق نتذكر الصدى السياسي والإعلامي الذي أحدثته عملية إنشاء بطاقة النقل (Navigo) في فرنسا والتي عن طريقها تتمكن أجهزة الأمن من معرفة ورصد تحركات الأشخاص. حيث اعتبرت عدة جمعيات وهيئات مدنية ذلك تعديا صارخا وتجسسا على حياة المواطنين الحميمية. في هذا الصدد نشرت صحيفة Le Figaro الفرنسية مقالا بعنوان: Se déplacer incognito avec Navigo: Mission impossible. نشر في 2009/01/06 تطرق فيه صاحبه للكلام عن هذه التقنية الجديدة في تذاكر السفر وعن خصوصياتها لاسيما الأمنية[2].

ثمة صراع بين الفرد والسلطة حيث تسعى السلطة إلى فرض هوية معينة على الأفراد بينما يسعى الأفراد إلى إثبات الذات أي إثبات هوية خالصة شخصية بعيدا عن هوية السلطة. بصفة أخرى تحقيق لذات المشاعر والأذواق وأنماط حياتها ومعتقداتها، أي المطالبة بحميميتها. ذلك ما أشار إليه فوكو قائلا: المشكل المطروح علينا اليوم والذي

[1] بيكو باريك. سياسة جديدة للهوية-المبادئ السياسية لعالم يتسم بالاعتماد المتبادل. ترجمة وتقديم: حسن محمد فتحي. مراجعة محمود ماجد عبد الخالق. المركز القومي للترجمة. القاهرة. الطبعة الأولى 2013. ص 62.

[2] Voir, Le figaro.fr: article de LaurantSuply sous le titre ; *se déplacer incognito, mission impossible*. Publié le 06/01/2009.

هو في آن واحد سياسي وإيتيقي واجتماعي وفلسفي، لا يتمثل في محاولة تحرير الفرد من الدولة ومؤسساتها ولكن في أن نتحرر من الدولة ومن نوع الفردانية المرتبطة بها[1].

يخلص الدكتور فتحي التريكي قائلا بأن مسار الهوية التاريخي بدأ بمعركة رهيبة خالصة وافتخار واثبات للذات عبر الحفاظ على مكتسبات الماضي والأصالة والتماثل والوحدة الأصلية والوظيفية وعبر معركة الاعتراف، إذن عبر المغالاة في التشبث بالشخصية الخالصة والعالم الخاص ولأجل ذلك، أفضى هذا المسار أيضا إلى قوميات متعصبة وإلى عنصريات عنيفة وإلى قوميات متطرفة وإقصائية وباتولوجية وإلى هويات استفزازية تتفاخر بإرادة قوتها. إن مزية هذه المقارنة هي في تنسيب مشاعر الانتماء والربط بين فكرة الهوية ونسيجها المفهومي على غرار مقولات الانفتاح والاختلاف والحرية والمساواة[2].

قائمة المصادر والمراجع:

1. هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجية الثقافة والهوية. ترجمة: حاتم حميد محسن. دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع. ط 1. دمشق 2010

2. الحمار العلمي، في الهوية والسلطة، دراسات وأبحاث في الفكر والمجتمع والسلطة، منشورات ما بعد الحداثة، فاس، 2006.

3. عهد كمال شلغين، الهوية العربية، صراع فكري وأزمة واقع. دراسة في الفكر العربي المعاصر. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. دمشق. 2010.

4. فتحي المسكيني. الهوية والحرية، نحو أنوار جديدة. جداول للنشر والتوزيع. ط 1. بيروت-لبنان. 2011.

5. عبيد بسيوني رضوان، أزمة الهوية والثورة على الدولة في غياب المواطنة وبروز الطائفية. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. ط 1. القاهرة 2012

6. بيكو باريك. سياسة جديدة للهوية-المبادئ السياسية لعالم يتسم بالاعتماد المتبادل. ترجمة وتقديم: حسن محمد فتحي. مراجعة محمود ماجد عبد الخالق. المركز القومي للترجمة. القاهرة. الطبعة الأولى 2013.

7. د. فتحي التريكي، الهوية ورهاناتها. تر. نور الدين السافي وزهير المدنيني. الدار المتوسطية. تونس. 2010.

8. P. Riutort, *précis de sociologie*, Ed PUF. Parsi 2004

9. MUCCHIELLI, *L'identité*, Ed. PUF Paris 1999

10. Le petit Robert 2, S/direction de Paul Robert, rédaction gle Alain Ray. Paris 1977.

11. Le figaro.fr: article de LaurantSuply sous le titre ; *se déplacer incognito, mission impossible*. Publié le 06/01/2009.

[1] د. فتحي التريكي، الهوية ورهاناتها. تر. نور الدين السافي وزهير المدنيني.مرجع سبق ذكره. ص 49

[2] المرجع نفسه ص. 50.